قراءة في منهجية "عبد القاهر الجرجاني"

في كتابه "دلائل الإعجاز".

ناريمان عبد القادر يوسف

جامعة تشرين

الملخص:

يظهر كتاب"دلائل الإعجاز"بوصفه يمثّل مرحلة النضج والازدهار في التأليف البلاغي في القرن الخامس الهجري. ويدفع عنوان الكتاب الباحث إلى تأمّله، بوصفه إشارة إلى خلفية منهج "عبد القاهر الجرجاني" في عمله؛ إذ يعتمد على الدلائل والحجج؛ لبيان سرّ الإعجاز الجاذب للمتلقي، والسامي بالرسالة إلى درجة عالية من البلاغة.

الكلمات المفتاحية: عبد القاهر الجرجاني،دلائل الإعجاز، القرن الخامس الهجري، البلاغة.

Abstract:

The book "Signs of Miracles" represents the stage of maturity and prosperity in the writing of rhetoric in the fifth century AH,andpays the title of the book researcher to the contemplation of its aspects,as a reference to the background of the method,Abd al-Qaahir al-Jorjaanii"in his work,on the basis of evidence and arguments,in order to show the mystery of attract of the miracle to the recipient,which raises the message of language to the high degree of the rhetoric.

Keywords: Abd al-Qaahir al-Jorjaanii, signs of the Miracles, the fifth century AH, rhetoric.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1407

المقدمة:

ينطلق هذا البحث من سؤال مفاده: ما الذي يوثِّق الارتباط بين الأركان الثلاثة للرسالة اللغوية البلاغية: (المرسل، والنص، والمتلقي) عند "عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني" (471هـ)* في كتابه "دلائل الإعجاز" ؟.

إنّ إدراك العلاقات الداخلية في التراكيب، يوقف المتلقي عند إرادة المتكلم، ويوصله إلى إدراك مستويات الدلالة التي يريد الإخبار عنها؛ نتيجة الوقوف أمام الجزئيات اللغوية بياناً وبلاغة، تلك الجزئيات التي تستنهض الفكر؛ لإدراك البلاغة إدراكاً مبدئياً، ومن ثم تترك المجال واسعاً أمام المتلقي؛ ليفهم الإعجاز في حضرة النص القرآني، بما يفصح عن الجمال والبلاغة والإعجاز، ويكشف أسرار ذلك مجتمعة. ولكنّ ثمّة رابطاً خفياً وجلياً حاضراً خلف الرسالة اللغوية، يجمع أركانها حتى يتحقق المراد منها، وهذا ما سعى "الجرجاني" إلى بيانه بالدليل والمنهج العلمي.

المناقشة:

1-البلاغة/النظم:

رأى "عبد القاهر" أن ادِّعاء البلاغة للفظ منفرداً غير واجبة له مقطوعاً عن الكلام؛ فالبلاغة في طريقة تقديم الكلام وفي تنظيم معانيه إنّها -البلاغة- النظم الذي هو صورة المعنى[1]، إنّها كما يقول: "ليس لنا إذا نحن تكلّمنا في البلاغة والفصاحة مع معاني الكلم المفردة شُغْل، ولاهي منّا بسبيل، وإنّما نعمد إلى الأحكام التي تحدث بالتأليف والتركيب"[2]، لقد جعل من "النظم" نظرية في دراسة النص وفهم أسراره، ومنح فكرة النظم صيغة جديدة، جعلت منها بحثاً عميقاً في العلاقات المتداخلة بين مفردات التراكيب، وتحوّل النظم عنده إلى مصطلح ذي مفهوم محدّد، ينبع من حيوية الدور الذي يقوم به الإعراب، فالألفاظ مغلقة على معانيها حتى يفتحها الإعراب، ويستخرج الأغراض الكامنة[3].

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1407

ويزيد عبد القاهر الأمر وضوحاً عندما أكّد أنّ النظم هو تعليق الكلام بعضه ببعض على ما يقتضيه علم النحو، عندما يتفاعل اللفظ مع المعنى النحوي من فاعلية ومفعولية وغيرها من المراتب النحوية، فيكسب اللفظ معنى جديداً ومختلفاً في كل موقع جديد، لا يكتسبه لفظ آخر في الوظيفة نفسها. بل يختلف المعنى نفسه باختلاف الفعل الذي يكون له فاعلاً، وباختلاف السياق النصي[4]، الذي يكون فيه هذا الاختلاف عائداً إلى قصدية المتكلم مبدع النص/الرسالة، التي إن لم تجد متلقياً لم تؤدِّ وظيفتها الحقيقية، وهذا ما يحيلنا إلى الحديث عن أركان العملية الإبداعية كما كانت في فكر "عبد القاهر".

ولعلّ الدكتور "مصطفى ناصف" قد قدّم معنى جديداً في تفسيره المسألة؛ إذ يرى المقصود من الدلائل: لغة الإعجاز، وكلمة الدليل هي: كلمة اللغة أو كلمة الشاعرية، وإذا كانت "الدلائل" في الحسّ اللغوي إنّما هي الرشاد والهدى، فالدلائل-أيضاً-هي بحث عن روح الانسجام الخفي بين الكلمات قياساً على الانسجام بين مظاهر الكون بوصفه آية، فعبد القاهر أراد من النظم روحاً جديدة تحفل بالدهشة وبالتحرر، لقد أراد منها تواصل روح موقدة، والنظم بهذا المعنى تطلُّع إلى كلمات تعلو وتستقرّ بعد أن تفنى كلمات، فتغدو العبارة كلمة واحدة محت نفسها، أو محت تواليها ونظامها وزمانها، فاستحالت ومضة خاطفة، وكثير من تعليقات الكتاب على الشواهد تلتقي عند فكرة الانتباه بعد الغفلة، فالنظم في الدلائل هو الكلام الحقيقي الذي لا يقال، إنّه الإعجاز بكلمة واحدة.[5]

2- المتكلم والمتلقي والأثر:

رأى "عبد القاهر" أنّ بنية الكلام مرهونة بغايات المتكلم، وخاضعة لفكره الذي يصنع اللغة؛ فالحظ الأوفى في حياكة نسيج الكلام إنّما تعود للعقل، الذي هو بمنزلة المصور للحقيقة اللغوية، والكامن وراء تسلّط الإنسان على اللغة؛ إذ يتعامل معها في محاورة سواء أكانت فاعلة بموجب البثّ (مع المتكلم)، أم كانت ممثلة (بموجب التلقي) بما يجمع محتوى الكلام مع صانعه ومتقبله معاً[6]، فمن مسلّمات رأيه أن يقوم النظم على الأساس النفسي؛ فالحكم في الترتيب بين المعاني والألفاظ عائد إلى المتكلم بما ينسجم وعقله. بل بما ينسجم

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1407

وفكرة سَبْق الكلام النفسي للفظ الدال عليه؛ فالأمر يُنظر إليه بحسب حال الواضع للكلام والمؤلّف له، لا بحسب ترتيب الألفاظ، ولا يصحّ العكس عند أيّ عاقل؛ لأنّ النظم كما يقول "الجرجاني": "صنعة يستعان عليها بالفكرة لا محالة، وإذا كانت مما يستعان عليها بالفكرة، ويستخرج بالروية، فينبغي أن ينظر في الفكر بماذا تلبّس؟ أبالمعاني؟ أم بالألفاظ؟{...}فمحال أن تتفكّر في شيء، وأنت لا تصنع فيه شيئاً، وإنّما تصنع في غيره".[7] وهنا، يظهر عمل العقل الواعي في التعبير عن المعاني وفق منطق النحو، وطبيعة العقل المؤسِّس للدلالة، التي تفرض نفسها على مستوى التلقي، وإدراك الخطاب فعلاً عقلياً متدبراً، يقوم على معانقة المعنى للعقل المسؤول عن التأليف والصياغة معاً، فالفنّ البلاغي صادر عن هذه الأمور الخفية الروحانية[8]. وهذا ما يعكس إدراك عبد القاهر أثر النفس المبدعة فيما تقدمه في رسالتها الفنية، وغرضها في ذلك البيان والإفهام والتواصل، بما لهذا من معانٍ بلاغية ولغوية بين المتكلم (المبدع) والمتلقي للرسالة، وكلّ ما من شأنه أن يحول دون إيصال الرسالة من شأنه أن يحول بين تواصلهما، ويمنع الكلام من أداء وظيفته.

ويتضح هنا معنى إفادة الكلام غرض المتكلم؛ فمراعاة الإفادة ألصق بالمخاطب ليجني فائدة التواصل مع المتكلم، ومراعاة الغرض ألصق بالمتكلم.لذلك كان من رأي عبد القاهر أنّ الولوع بالبديع-مثلاً-يؤدي بالمتكلم إلى تنميق الكلام، ونسيان غرضه الأصلي ألا وهو الإفهام، الذي يتحقق باعتماد المتكلم على اللغة التي تواضع الناس عليها، والتي تمدّه بالمفردات؛ فالأسباب الداعية إلى إعمال الفكر لاكتشاف أسرار الكلام ينبغي ألّا تقف في وجه فهم هذا الكلام[9].

وهذا يعكس أيضاً إدراك "عبد القاهر" تلك الحالة النفسية التي تُخلَق عند المتلقي؛ بسبب تذوّق الشعر، وتَبيُّنِ ما فيه من بلاغة إيقاعية ولذة تولِّد في نفسه (الأريحية) التي سببها ما بيّنه "عبد القاهر" في تحليله نماذج من الشعر والنثر البليغ[10].فقد تعوُد هذه (الأريحية) إلى وقوع مالا ينتظره السامع، أو تنشأ من الاكتشاف التدريجي لدقائق المعنى التي بعضها حاضر، وبعضها الآخر غائب، والثالث كالبعيد لا يُنال إلّا بعد تأمّل وفكر، مثل حديثه عن الكناية

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1407

والاستعارة والتمثيل على حدّ سواء، وذلك في قوله: ولكن اعلمْ أنَّ سبب أنْ راقك (التشبيه) وأدخل الأريحية عليك، أنّه أفادك في إثبات شدّة الشبه مزيةً، وأوجدك فيه خاصةً قد غُرِزَ في طبع الإنسان أن يرتاح لها، ويجد في نفسه هزَّة عندها، وهذا حكم نظائره،كقول أبي نواس:

تبكي فتذري الدّرَّ عن نرجسٍ وَتلطِمُ الوردَ بعنّابِ

واعلم أنّ من شأن الاستعارة أنّك كلّما زدت إرادتك التشبيه إخفاء، ازدادت الاستعارة حسناً، حتى إنّك تراها أغرب ما تكون إذا كان الكلام قد ألّف تأليفاً إنْ تفصح فيه بالتشبيه، خرجت إلى شيء تعافه النفس ويلفظه السمع[11].

ومع ذلك لا يُظنّ أنّ هذه الأساليب البلاغية هي مصدر الاستحسان لذاتها، وإنّما لخضوعها لمقتضيات النظم وأغراض المتكلم. وكلّ وسائل التعبير ومعطيات (النظم) لها قيمة نسبية نابعة من السياق، مثلما أنكر "عبد القاهر" أن يكون للفظة الواحدة مزية دون أن تدخل في تركيب، فتؤلّف مع غيرها سياقاً متكاملاً إيقاعياً، يحقّق التفاعل المنتظم بين مكوّنات العمل الفني وأجزائه[12]، يقول: "وهل تجد أحداً يقول: "هذه اللفظة فصيحة"، إلّا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟"[13]، وقد زاد في بيان الأمر عندما ناقش قول الله تعالى: "وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء واستوت على الجودي وقيل بُعداً للقوم الظالمين"** فقال: "إن شككت، فتأمل: هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت، لأدَّت من الفصاحة ما تؤدِّيه وهي في مكانها من الآية؟ قل: "ابلعي"، واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها. وكيف بالشكّ في ذلك، ومعلوم أنّ مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض،ثم أُمرت، ثم في أن كان النداء بـ "يا" دون "أيّ" ، نحو "يا أيتها الأرض" ثم إضافة "الماء" إلى "الكاف" دون أن يقال "ابلعي الماء" ثم أن أُتْبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصّها، ثم أن قيل: "وغيض الماء" فجاء الفعل على صيغة "فُعْلَ" الدالة على أنّه لم يغض إلا بأمر آمرٍ وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: "وقضي الأمر" ثمّ ذكر ما هو فائدة هذه الأمور، وهو "استوت على الجودي" ثمّ

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1407

إضمار السفينة، قبل الذِّكْر،كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابلة "قيل"في الخاتمة" بقيل" في الفاتحة. أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة، وتحضِرك عند تصوّرها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموعٌ وحروف تتوالى في النطق، أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتّساق العجيب؟ فقد اتّضح إذن اتّضاحاً لا يدع للشكّ مجالاً، أنّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجرّدة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأنّ الفضيلة وخلافها، في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك، ممالا تعلق له بصريح اللفظ."[14]

إنّ "عبد القاهر" يحلّل النصّ تحليلاً بلاغياً بما لا يدع مجالاً للإضافة والتعليل، رابطاً في ذلك بين ذات المبدع ونظمه، مما يجعل فهم البلاغة متوقّفاً على (الذوق والإحساس النفسي الداخلي)، بالاعتماد على الروية والفكر، وبالنظر إلى سمات النص الجمالية[15]؛ فتلتقي مشاركة المتلقي مع إبداع المتكلم في التركيب اللغوي، في مجال التأويل والتقدير على نحو لاشعوري، ولاسيّما عند الوقوف على ظاهرة "الحذف"؛ إذ يفتح الحذف الكائن في السياق أبواب التقدير عند المتلقي، ليكون الباحث عن معنى كامن في تلابيب الرسالة المؤداة بلاغة، ووفق مقتضيات النحو، مثل قول الشاعر:

زعم العواذلُ أنّ ناقةَ جُنْدَبٍ بجنوبِ خبْتٍ عُـرِّيَتْ وأجمَّتِ

كذبَ العواذلُ لو رأينَمُناخنا بالقادسيَّةِ قُلْنَ:لجَّ وذلَّتِ***

وقد زاد هذا أمر القطع والاستئناف وتقدير الجواب، تأكيداً أنّ وضع الظاهر موضع المضمر، فقال: "كذب العواذل"، ولم يقل "كذبن"، وذلك أنه لما أعاد ذكر "العواذل" ظاهراً، كان ذلك أبين وأقوى، لكونه كلاماً مستأنفاً، من حيث وضعه وضعاً لا يحتاج فيه إلى قبله، وأتى به مأتى ما ليس قبله كلام"[16].

وهكذا نجد"عبد القاهر"يوضح نظريته في الإعجاز، ويشير إلى العلاقة بين ركني الرسالة اللغوية (المرسل، والمتلقي) المتمثلة بالأثر، أو الأريحية، ليصل المراد من الرسالة اللغوية

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1407

بتحقّق الفهم، وإن لم يتحقق ذلك ضاعت وضاع معها المعنى، وبَطُل الهدف منها، ولم يكن ثمة تواصل لغوي ذو أثر بلاغي بين المتكلمين القاصدين تحقيق مثل ذاك الأثر العميق في نفس المتلقي على اختلاف الأزمان.

3- منهج "عبد القاهر الجرجاني" في "الدلائل":

اعتمد المنهج الذي اتّبعه "عبد القاهر الجرجاني" في كتابه "دلائل الإعجاز" على تكرير المسألة والتدليل عليها؛ مما جعل الحديث عن نظريته حديثاً طويلاً، أظهر كتابه وكأنّه مشوّه التأليف، مبعثر الأفكار، مثلما وصفه بذلك بعض الدارسين له، أورد ذِكْرهم الدكتور "أحمد مطلوب"، ثم بيّن أن "الجرجاني": قد سعى إلى بيان هدفه، متّخذاً في ذلك وسائل مختلفة: من عرض النصوص، وتحليلها، والجدل العقلي، والمنطق السليم، مظهراً التأثير النفسي في ذلك كلّه، جامعاً لنزعتين؛ الأولى: علمية، والثانية أدبية[17]. لعلّ الأولى تجلّت في تفنيد الآراء ومناقشتها، وتجلَّت الثانية في عدم إغفال روح الفنّ والإبداع. وإنّ الناظر إلى صفحات كتاب "دلائل الإعجاز" والمتأمّل في مضامينه، يدرك غرض مؤلفه في بيان نظريته، وترسيخها، وإقناع المتلقي بها.

إنّ قارئ كتاب "دلائل الإعجاز" يلحظ حرص "الجرجاني" على دعوة المتلقي لتذوق البلاغة، ثم معرفة السبب الذي أدى إليها؛ من أجل ذلك نجده قد اعتمد منهج التشكيل الفني، والتشكيل الجبري في تصوير دلالة الكلام، بما يشبه العلاقة الجبرية التي يتعاقب عليها الإيجاب والسلب، من حيث هي أحكام على الوجود، ولا وجود لها في ذاتها، ملحًّا على سمة التكامل العضوي في ضبط الحدث اللغوي، بما يفضي إلى الجلاء الاصطلاحي، وهو (النظم والتلاؤم)[18]. فكيف بنى "الجرجاني" منهجه في كتابه هذا؟.

أ- الإقناع:

بنى "عبد القاهر" منهجه في كتابه على المحاورة بهدف الإقناع العقلي؛ لإثبات ما يريده في قضية "إعجاز القرآن"، مستخدماً مفردات تحثّ المتلقي على إعمال عقله لمعرفة

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1407

الأسرار، وفهم الأسباب، مثل المفردات الآتية: سبب، يتصوّر، بان الأمر، وغيرها؛ للفت انتباه المتلقي، لِيُفْهِمَه مقصودَه، ثم يقنعه به، وهكذا كان ديدنه في الكتاب كلّه، يستعمل الدليل وراء الآخر إلى أن تكون الدلائل مجتمعة، يقول: "وجملة ما أردت أن أبيّنه لك: أنّه لابد لكل كلام تستحسنه، ولفظ تستجيده، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة وعلّة معقولة، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذاك سبيل، وعلى صحة ما ادّعيناه من ذلك دليل".[19]

ويتابع اعتماده على هذا الأسلوب في نفي أن يكون الغرض من نظم الكلم توالي الألفاظ في النطق، إنّما ينتج عن تعليق الكلم بعضه ببعض، فنعمد إلى الاسم فنجعله فاعلاً لفعل أو مفعولاً، أو نتبع الاسم اسماً على أن يكون الثاني صفة للأول أو تأكيداً له أو بدلاً منه، ويزيد الأمر إيضاحاً عندما يقول: "وإذا كان لا يكون في الكلم نظم ولا ترتيب إلّا بأن يصنع بها هذا الصنيع ونحوه، وكان مما لا يرجع منه إلى اللفظ شيء، ومما لا يتصوّر أن يكون فيه ومن صفته، بانَ بذلك أنّ الأمر على ما قلناه، من أنّ اللفظ تبع للمعنى في النظم[20]".

ومن ذلك بناؤه الكتاب على فصول بلاغية، عقدت لإرساء قواعد علم البلاغة على أساس من المعرفة والعقل في ضوء من المثل والدليل، فَيُبْدِئ ويعيد في مواطن كثيرة؛ لإبطال أن تكون الفصاحة مردودها إلى اللفظ أو إلى المعنى فقط.[21]

لقد قام هذا الأسلوب على المنطق والتعليل؛ كما في مناقشته فكرة الانتصار للفظ أو الانتصار للمعنى، فقد أورد آراء لمن سبقه تَنْصر اللفظ على المعنى، وأُخرى تنصر المعنى على اللفظ، ثم أخضع هذه الآراء كلّها إلى التأويل بما يتوافق ورأيه في هذه المسألة، وبيان ذلك ما قام به "عبد القاهر" عندما فرّق بين معاني الكلم وألفاظها، فقال:

"وذلك أنّ نظم الحروف هو تواليها في النطق، وليس نظمها بمقتضى عن معنى، ولا الناظم لها بمقتف في ذلك رسماً من العقل اقتضى أن يتحرّى في نظمها ما تحرّاه"[22]؛ فترتيب الكلام في اللفظ إنّما هو تابع لترتيب المعاني، ثم بيَّن قيمة اللفظ بالنسبة للمعنى، بعد أن ذكَر ذهاب بعضهم إلى الحكم بالمزية لّلفظ دون المعنى: "والذي له صاروا كذلك، أنّهم حين رأوهم يفردون

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1407

"اللفظ" عن "المعنى"، ويجعلون له حسناً على حدة، ورأوهم قد قسموا الشعر فقالوا: "إنّ منه ما حسن لفظه ومعناه، ومنه ما حسن لفظه دون معناه، ومنه ما حسن معناه دون لفظه"، ورأوهم يصفون "اللفظ" بأوصاف لا يصفون بها "المعنى"، ظنّوا أنّ للّفظ، من حيث هو لفظ، حسناً ومزية ونبلاً وشرفاً، وأنّ الأوصاف التي نَحَلُوه إيّاها هي أوصافه على الصحة، وذهبوا عمّا قدّمنا شرحه من أنّ لهم في ذلك رأياً وتدبيراً، وهو أن يفصلوا بين المعنى الذي هو الغرض، وبين الصورة التي يخرج فيها، فنسبوا ما كان من الحسن والمزية في صورة المعنى إلى "اللفظ"، ووصفوه في ذلك بأوصاف هي تخبر عن أنفسها أنّها ليست له"[23].

لقد رأى اللفظ رمزاً لمعناه، والعلاقة بينهما تكوّن العلامة اللغوية التي هي نتاج ربطها بعضها ببعض من جهة، ونتاج ربط دلالات الألفاظ الأسلوبية ودلالاتها الثانوية من جهة أخرى[24]، وبذلك تكون اللغة مؤلّفة من وحدات هي الألفاظ، التي يخلق منها النحو تراكيب متجددة، تعبّر عن المعاني المقرّرة في النّفس[25]، وهذا يؤول ضرورة إلى تطابق بنية الدوال الخارجية مع بنية المدلولات النفسية الداخلية، ليؤدي هذا التطابق فكرة الصياغة والنظم، تجاوزاً لنظرية اللفظ والمعنى[26]، فالذي يمايزُ النصّ البليغَ ذا الإعجاز استجماعُ مظاهر الحسن البلاغي، المتمثلة بحسن اللفظ الحامل للمعنى البعيد القريب الجاذب للمتلقي؛ ليُعمِل عقله وجنانه في معرفة ما يؤول إليه النصّ من دلالات مفتوحة غير منتهية، متجدّدة مع المتلقي نفسه في كل مرة يتلقّى فيها النصّ نفسه، ومتجدّدة مع كلّ متلقٍّ جديد.

وبناء على ذلك، فإنّ للّغة استعمالين؛ الأول: رمزي يُستخدم فيه اللفظ؛ لتنظيم الإشارات الذهنية وترتيبها، كما يراها الذهن من غير إغفال النظر إلى العلاقة اللغوية على أنّها اعتباطية وعرفية. وبفضل الترابط الذهني بين الدال والمدلول تغدو الدلالة متداولة بين أفراد اللغة في مجتمع معين[27]. وأمّا الاستعمال الثاني، فانفعالي يعبر عن المشاعر والأحاسيس، وهنا تظهر فكرة المعاني الثواني، بعد تجلية المعاني الأُوَل التي يسعى المتكلم لإظهارها باللغة.[28]

ب- إيراد الشاهد والمثل:

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1407

اعتمد "عبد القاهر" على إيراد الشاهد والمثل؛ لبيان فكرته وتجليتها، من أجل المضي شرحاً وتفصيلاً للفكرة التي بين يديه؛ ومن ذلك حديثه عن "الحذف" وقيمته البلاغية، وأثره في جمال النظم؛ فجاء بمجموعة من الشواهد الشعرية، تبيّن مذهبه، وتزيل أيّة شبهة في ذهن السامع عن صحّة مقالته تلك، يقول: "هو باب دقيق المسالك، لطيف المأخذ {...} وهذه جملةٌ قد تنكرها حتى تخبر، وتدفعها حتى تنظر، وأنا أكتب لك بديئاً أمثلة مما عرض فيه الحذف، ثم أنبّهك على صحّة ما أشرت إليه، وأقيم الحجة من ذلك عليه، أنشد صاحب الكتاب:

اعتَادَ قلبُكَ منْ لَيلى عَوائدَهُ وهَاج أهواءَكَ المكنونةَ الطَّلَلُ

رَبْعٌ قواءٌ أذاعَ المعصراتُ بِهِ وكُلُّ حَيرانَ سَارٍ مَاؤهُ خَضلُ

قال: أراد ذاك ربع قواء أو هو ربع."[29]

ومن ذلك -أيضاً- أمثلته على صياغات مختلفة لهمزة الاستفهام؛ لبيان ما لهذه الأساليب من دقائق بلاغية، ومعان إضافية تصاغ وفق اختيار المتكلم وإرادته.[30]

و"الجرجاني"في كل باب يعمد إلى ذلك، فيتابع في عرض شواهده ومناقشتها، وتفصيل القول فيها. وقراءة "الدلائل" تدبراً وتأملاً خير دليل[31]، ومن ذلك قوله: "ليس بخاف أنّ لتقديم "الشركاء"حسناً وروعة ومأخذاً من القلوب، أنت لا تجد شيئاً منه إن أنت أخرّت فقلت: "وجعلوا الجنّ شركاء لله"، وأنّك ترى حالك حال من نُقل عن الصورة المبهجة والمنظر الرائق والحسن الباهر، إلى الشيء الغُفل الذي لا تحلى منه بكثير طائل، ولا تصير النفس به إلى حاصل. والسبب في أن كان ذلك كذلك، هو أنّ للتقديم فائدة شريفة ومعنى جليلاً لا سبيل إليه مع التأخير. بيانه، أنّا وإن كنا نرى جملة المعنى ومحصوله أنّهم جعلوا الجنّ شركاء وعبدوهم مع الله تعالى، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم، فإنّ تقديم "الشركاء" يفيد هذا المعنى، ويفيد معه معنى آخر,وهو أنّه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك,لا من الجنّ ولا غير الجنّ{...}فإذا قلت:"ما في الدار كريم"كنت نفيت الكينونة في الدار عن

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1407

كلّ من يكون الكرم صفته، وحكم الإنكار أبداً حكم النفي، وإذا أخّر فقيل "وجعلوا الجنّ شركاء لله"، كان "الجن" مفعولاً أول، و"الشركاء"مفعولاً ثانياً، وإذا كان كذلك،كان "الشركاء" مخصوصاً غير مطلقٍ، من حيث كان محالاً أن يجرى خبراً على الجن، ثم يكون عاماً فيهم وفي غيرهم، وإذا كان كذلك، احتمل أن يكون القصد بالإنكار إلى "الجن" خصوصاً، أن يكون "شركاء" دون غيرهم {..}. فانظر الآن إلى شرف ما حصل من المعنى بأن قدّم "الشركاء"، واعتبره فإنّه ينبّهك على الكثير من الأمور، ويدلّك على عظم شأن "النظم"، وتعلم به كيف كان الإيجاز وما صورته، وكيف يزاد في المعنى من غير أن يزاد في اللفظ".[32]

وهذا كلّه يُظهر كيف كان "عبد القاهر" يحلّل أمثلته تحليلاً يجتمع فيه العقل والذوق، ويستعين فيه الحسّ بالعلم. بل إنّ الجرجاني يرى أنّ الذوق شرط لإدراك ما يريد من جوانب البلاغة، وأنّ من لم يُؤتَ الذوق، فلن يكشف عن بصره حجاب التفاضل بين جيد الكلام ورديئه، ولن يدرك أسرار الجمال في نظم الكلام[33]، فالذوق حاسة إدراك اللطف، وهي مبعث (الأريحية) في نفس صاحبه، عند استكشاف الدفين من المعاني.[34]

ج- صياغة المصطلحات:

لم تكن البلاغة -قبل عبد القاهر- قُسمت إلى علوم المعاني والبيان والبديع، ولم تستقرّ مباحثها في تسميات ومصطلحات واضحة شأن استقرارها فيما بعد، ولما جاء عبد القاهر أولى المصطلحات أهميّة كبيرة، وحاول أن يضعها وضعاً دقيقاً، وأن يحدد معناها، ولكنّه أعطى مصطلحات البلاغة حرية واسعة؛ لأنّه لم يقيّدها كلّ التقييد، وكان مدركاً طبيعة الأدب، وما يوجبه من حرية يتحرك الأديب في مداها، ومثال ذلك: نظرته إلى المصطلحات الكبيرة نظرة واسعة؛ فالفصاحة هي البلاغة بمعناها العام، ولا تكون في الألفاظ، وإنّما في المعاني. والبيان مصطلح عام يشمل البلاغة كلّها. والبديع عنده يرادف الفصاحة والبلاغة والبيان أيضاً. وعلم المعاني هو توخّي معاني النحو. وحرص أن تكون تعريفاتها جامعة مانعة، وأن تكون ألفاظها دالّة على معانيها، فلا ينصرف الذهن إلى غيرها، واحتفى بتقسيماتها التي تضبط الفنون، وتوضح صورتها للدارسين[35]، ومن ذلك -على سبيل المثال- استعمال مصطلح (صورة المعنى)

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1407

بوصفه مصطلحاً واسعاً غير مرادف دوماً للكلام البليغ. بل هو مفهوم مرن يستوعب ألواناً من الكلام تتفاوت في الحسن، وترجع مزاياها إلى خصوصيات متنوعة[36]، وبيان ذلك أنّ "الجرجاني" كان كلّما استخدم مصطلح "الصورة" قابل الكلام بنماذج الصناعة، والنساجة، والتصوير، وما من شأنه أن يحدِث الشكل الجميل في المادة الموضوعة للصناعة. ومعاني المصطلح تخدم الغرض النقدي الهادف؛ لجلاء بنية النصّ المتألّف من اجتماع اللفظ والمعنى؛ إذ نجد هذا المصطلح معتَمداً على صعيد واسع وراسخ في بيئات البلاغيين والنقاد؛ فالهيئة التي يتلبّسها المعنى الشعري تدعى صورة؛ إذ هي –على المستوى الفني– خصوصية تنطبع في المعنى، وهي– على مستوى المفهوم– تمثيل، وبالقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا، هي مقولة ذهنية تكون محصلة تجريد التجسيد العيني للمعنى في البيت، وهي في وضعها التشخيصي نظير خصوصية الصورة التي يتبين بها الفرد الواحد من آحاد جنسه، وفي هذا المستوى يستخدم مصطلح الصورة لغاية ضبط الخصوصيات المشكلة للشيء أو للصياغة، يقول: "ومعلوم أنّ سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وأنّ سبيل المعنى الذي يعبَّر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه، كالفضّة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار. فكما أنّ محالاً إذا أردت النظر في صوغ الخاتم، وفي جودة العمل ورداءته، أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة، أو الذهب الذي وقع فيه ذلك العمل وتلك الصنعة، كذلك محال إذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام، أن تنظر في مجرد معناه" .[37]وممّا لاشكّ فيه أنّ وضع المصطلحات للعلم المراد التنظير له، يمثّل خطوة علمية ذات بُعد منهجي رصين؛ يُظهر "الجرجاني" بمظهر العالم الحصيف، الساعي إلى تأسيس نظريته تأسيساً علمياً.

الخاتمة:

استطاع "عبد القاهر الجرجاني" في القرن الخامس الهجري أن يجعل سمة "العلمية" تطبع صفحات كتبه؛ بفضل علمه وعقله الساعيَين للبحث عن الحقائق الخفية، متسلّحاً بفكر ورويّة دائمَين لا يغيبان عنه، وهو من ظلّ يذكِّر قارئ كتبه بهما؛ إنّهما سلاح الباحث؛ إذ لا تكفي المعلومات في الوصول إلى الحقيقة. بل لابدّ من تحريك العقل نحو دقائق الأمور؛ لأنّ

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1407

اللطائف لا تعرِض نفسها على المرء، ولكن الباحث الجادَّ من يسعى إليها، مستنصراً بعقله المتدبِّر، بعد أن يزيل غشاوة العينين والقلب معاً، فيغدو فاهماً ما يعرِض له من إشارات خفية وجليَّة، قارئاً ما يجد من علامات ودلائل، وكلّ هذا متحصِّل له، إذا ما تسلَّح بأدوات علمية ومنهجية تجعل منه قارئاً حقاً.

الهوامش:

*إمام في العربية واللغة والبلاغة، تخرّج على أبي الحسين بن عبد الوارث الفارسي ابن أخت أبي علي الفارسي، ولم يقرأ على غيره.صنّف في النحو وعلوم الأدب كتباً مفيدة، له شرح الإيضاح، وأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، وغير ذلك. ينظر: عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني: إشارة التعيين وتراجم النحاة واللغويين، تح:د.عبد المجيد دياب، شركة الطباعة السعودية العربية، الرياض, ط1، 1406هـ . 1986م، ص188.

[1] – ينظر: عبد القادر المهيري: أعلام وأثار من التراث اللغوي، دار الجنوب، تونس، ب.ط، 1993، ص129.وينظر: عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تح: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 1442هـ2004م، صص 254، 255،454، 455.

[2] . الجرجاني، دلائل الإعجاز،ص72.

[3] ينظر:شفيع السيد: البحث البلاغي عند العرب، دار الفكر العربي، القاهرة، ب.ط، 1987م، ص54، وينظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص51.

[4] . ينظر: المصدر السابق، ص 55، 81، 370. وينظر:محمد عبد اللطيف حماسة:في النحو والدلالة، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1420هـ، 2000م، ص 17.

[5] . ينظر:اللغة والتفسير والتواصل، من سلسلة عالم المعرفة، العدد 193، 1995م، صص100 . 105.

[6]- ينظر: عبد السلام المسدي:التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية، تونس، ب.ط، 1981م، ص160وما بعدها. وينظر:الجرجاني، دلائل الإعجاز،صص49، 50، 530.

[7] . ينظر: الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص51، ص 364.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1407

[8]. ينظر:الأخضر جمعي: اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، اتّحاد كتاب العرب، دمشق، ب.ط، 2001م, ص 193، 194. وينظر: ابتسام حمدان: الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي، حلب، ط1، 1418هـ. 1998م، صص113, 114.

[9]. ينظر:مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2005، ص185, 186.

[10]. ينظر:ابتسام حمدان:الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي, ص115, 116.

[11]. ينظر:الجرجاني: دلائل الإعجاز،ص 450 وما بعدها,وينظر:المصدر نفسه،ص455.

[12]-ينظر:فايز الداية: علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق، دار الفكر, دمشق ط2، 1417هـ. 1996م، ص279. وينظر: ابتسام حمدان: الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي, ص 68 , 73 .

[13]. الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص44.

**سورة هود:44.

[14]. الجرجاني:دلائل الإعجاز, ص45, 46.

[15]. ينظر:علي نجيب إبراهيم:جماليات اللفظة بين السياق ونظرية النظم، دار كنعان, دمشق, ط1، 2002م, ص28, 29.

*** خبت: ماءٌ لكلب, و(عريت)الناقة من رحلها,(أجمت) أريحت من الركوب والسير, و(لجّ) جندبُ في السير والتباعد، و(ذلت) الناقة من طول السفر.ينظر:الجرجاني،دلائل لإعجاز, ص236.

[16]. ينظر:المصدر السابق.

[17]. ينظر:عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده,ص35، 36.

[18]. ينظر:عبد السلام المسدي.التفكير اللساني في الحضارة العربية, ص351.

[19]-ينظر:الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 41.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1407

[20]. المصدر السابق، صص55 ,56.

[21]. ينظر المصدر السابق، ص 39.

[22]. ينظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 49.

[23]. المصدر السابق، صص 365 , 366.

[24]. ينظر:مصطفى إبراهيم: في النقد الأدبي القديم عند العرب، مكة للطباعة،ب.ط، 1419هـ. 1998م, صص196. 199.

[25]. ينظر:محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون والشركة العالمية المصرية، القاهرة، ط1994،1م, ص 49.

[26]. ينظر: الأخضر الجمعي: اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، صص 192, 193.

[27]. ينظر:فايز الداية:علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق، ص18.

[28]- ينظر:عصام قصبجي، و(ضحى بلال): المعنى ومعنى المعنى بين اللغة والبلاغة، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، سورية، المجلد21، العدد14، 1999م, ص125.

[29]الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص146، وينظر للتوسّع: المصدر نفسه، الصفحة نفسها وما بعدها.

[30]. ينظر:عبد الفتاح لاشين: التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر، دار المريخ، المملكة العربية السعودية، ب.ط، ب.ت، ص157.

[31]. ينظر: الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 83 وما بعدها.

[32]. المصدر السابق، صص286- 288.

[33]. ينظر:مازن المبارك: الموجز في تاريخ البلاغة، دار الفكر، ب.م، ب.ت، ص95.

[34]. ينظر:عبد الفتاح لاشين: التراكيب النحوية، ص167 وما بعدها.

[35]. ينظر: أحمد مطلوب، الجرجاني بلاغته ونقده، صص201 - 203.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1407

[36]. ينظر:الأخضر الجمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي و البلاغي عند العرب، ص200.

37. الجرجاني: دلائل الإعجاز، صص254, 255.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1407